المرأة الجديدة — تتمة التقريظ

وأما الفصل الخامس ففي (التربية والحجاب) واهم مسائله (١) قوله ان الحجاب جعل المرأة في حكم القاصر لا تستطيع ان تباشر عملاً مابنفسها مع ان الشرع يعترف لها في تدبير شؤنها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل وان ضرره الاعظم انه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها . و(٢) انه ينبغي ان تربى كتربية الرجل في جسمها وآدابها وعقلها . و (٣) قوله « متى انتهت تربية البنت باتخاذ مايلزم من الوسائل لتنمية قواها الجسمية وملكاتها العقلية وبلغت الخامسة عشرة من عمرها » ينبغي ان تطلق لها الحرية في مخالطة الرجال « لان قهر الانسان لهواه وجعله تحت سلطان العقل يستدعي قوة عظيمة في الارادة . ولا توجد هذه القوة في الارادة باقامة الحوائل المادية بينه وبين النقائص ولا بمجرد حشو ذهنه بالقواعد الادبية وانما تتولد بالتعرض لملاقاة الحوادث والتعود على مغالبتها والتغلب عليها . فمزاولة الاعمال ومشاهدة الحوادث واختبار الامور ومخالطة الناس والاحتكاك بهم والتجارب كل هذه الاشياء هي منابع للعلم والآداب الصحيحة . بها ترتقي النفوس الكريمة حتى تبلغ أعلى الدرجات وامامها تنهزم النفوس الضعيفة وتهبط الى اسفل الدركات » اه

و (٤) ذكر قول معترض حض على النظر الى مدنيتنا القديمة التي ذكر من اصولها احتجاب النساء وقال انها نفس الكمال . والرد عليه بوجوب اخذ الاهبة لمقاومة سلطة العادات الموروثة اذا خشينا ان تسلبنا ارادتنا واختيارنا وذلك بالالتفات الى المدنية الاسلامية ووزنها بميزان العقل والتدبر

في اسباب ارتقاء الامة الاسلامية واسباب انحطاطها واستخلاص قاعدة من ذلك يمكننا ان نقيم عليه بناء نتفع به اليوم او في ما يستقبل من الزمان

ثم ذكر ظهور الاسلام في جزيرة العرب وفتوحاته واخذ العلوم والصنائع ممن فتح المسلمون بلادهم وما كان من النهضة العلمية وقال بعد ذلك ما نصه : « على هذين الاساسين شُيِّدت المدنية الاسلامية الاساس الديني الذي كون من القبائل العربية امة واحدة خاضعة لحاكم واحد ولشرع واحد . والاساس العلمي الذي ارتقت به عقول الامة الاسلامية وآدابها الى الحد الذي كان في استطاعتها ان تصل اليه في ذلك العهد » . ثم ذكر ان قوة العلم كانت ضعيفة في ذلك العصر واكثر اصوله ظنية وان الفقهاء تغلبوا على رجال العلم ورموهم بالكفر والزندقة حتى نفر الناس من دراسة العلم . قال « ثم غلوا في دينهم وشطوا في رأيهم حتى قالوا في العلوم الدينية نفسها انها لا بد ان تقف عند حد لا يجوز لاحد ان يتجاوزه فقرروا ان ما وضعه بعض الفقهاء هو الحق الابدي الذي لا يجوز لاحد ان يخالفه وكأنهم رأوا من قواعد الدين ان تُسدّ ابواب فضل الله على اهله أجمعين » ثم عقب هذا بكلمة جليلة ذكر بعدها ما كان من ارتقاء العلم في اوربا وهي : « هذا النزاع الذي قام بين اهل الدين وأهل العلم ولا أقول بين الدين والعلم لم يكن خاصاً بالامم الاسلامية بل وقع كذلك عند الامم الاوربية » ثم ذكر بعض الاكتشافات الحديثة في العلم وتغلب اهله على رجال الدين واستنتج من ذلك قوله :

« فاذا كان التمدن الاسلامي بدأ وانتهى قبل ان يكشف الغطاء عن اصول العلوم كما بيناه فكيف يمكن ان نعتقد ان هذا التمدن كان « نموذج

الكمال البشري » يهمنا ان لا نبخس اسلافنا حقهم ولا ننقص من شأنهم ولكن يهمنا مع ذلك ان لا نغش انفسنا بان نتخيل انهم وصلوا الى غاية من الكمال ليس وراءها غاية . نحن طلاب حقيقة اذا عثرنا عليها جهرنا بها مهما تألم القراء من سماعها . لذلك نرى من الواجب علينا ان نقول انه يجب على كل مسلم ان يدرس التمدن الاسلامي ويقف على ظواهره وخفاياه لانه يحتوي على كثير من اصول حالتنا الحاضرة ويجب عليه ان يعجب به لانه عمل انتفعت به الانسانية وكملت به ما كان ناقصاً منها في بعض ادوارها ولكن كثيراً من ظواهر هذا التمدن لا يمكن ان يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية » اه

وقد بين السبب في عدم هذا الامكان من جهة العلوم الكونية قبله وبين بعد سبب ذلك من جهة النظامات السياسية وانتقد السلطة المطلقة التي جرى عليها الخلفاء والملوك وما كان فيها من الاستبداد الذي ساعد عليه عدم تحديد الفقهاء للعقوبات بل تركوا انواع التعزير مفوضة للحاكم ثم بين انه لم يكن عندهم شيء من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية حتى ان ابن خلدون لم يذكر في كتابه وهو الكتاب الوحيد الذي وضع عند المسلمين في الاصول الاجتماعية كلمة واحدة في (العائلة) . ثم بين ان الحالة العائلية كانت خالية من كل نظام . ثم بين ذلك من جهة الآداب فذكر ان المسلمين لم يأتوا للعالم بأصول جديدة فيها واما عملهم بها فذكر ان التاريخ يشهد على ان كل عصر لا يخلو من الطيب والرديء وأشار الى اهم ما ينتقد على المسلمين كتمزيق الدولة العربية بالمنازعات الداخلية وكشرب بعض الامراء والعظماء الخمر جهراً في مجالس الجواري والقيان وغير ذلك .

ثم قرر بعد ذلك الرد على من قال ان المدنية الاسلامية كانت « نموذج الكمال البشرى » وان المسلمين كانوا حائزين جميع انواع « الكمالات الاخلاقية الصحيحة » وقرر ان الحجاب اذا كان عادة من عاداتهم التى لم تكن كلها كاملة فلا ينافى ذلك انه لا يليق فى عصرنا . ثم قال ماتصه بالحرف « وغنيٌّ عن البيان اننا عند كلامنا على المدنية الاسلامية لم نقصد الحكم عليها من جهة الدين بل من جهة العلوم والفنون والصنائع والآداب والعادات التى يكون مجموعها الحالة الاجتماعية التى اختصت بها . ذلك لأن عامل الدين لم يكن وحده المؤثر فى وجود تلك الحالة الاجتماعية فهو على ما به من قوة السلطان على الاخلاق لم ينتج الا أثراً مناسباً لدرجة عقول وآداب الامم التى سبقت » ثم حتم بوجوب بناء مدنيتنا على العلوم العصرية التى بنى عليها الاوربيون مدنيتهم

والمسألة (٥) من مهمات هذا الفصل البحث فى زعم الذين يعترفون بتقدم الغربيين علينا فى الصنائع وانكار تقدمهم فى الآداب ولم يُبقِ الاسهاب فى المسئلة الرابعة مجالاً لتلخيص شئ منها وإنما اطلت فى هذه لانها اهم مسائل الكتاب فى الحقيقة ولان الناس يلغطون فيها قولاً وكتابة على غير بصيرة بل يكذبون على المؤلف ويتهمونه بانه طعن بالدين الاسلامي نفسه وقال انه غير كاف لمدنية المسلمين فى هذا العصر ونحو ذلك مما يرمى به من لاقيمة للصدق ولا للدين فى نفوسهم . نعم ان كلامه فى هذا الموضوع لايسلم من استدراك وانتقاد سنبينه فى بقية مقالاتنا فى (مدنية العرب) .

واما خاتمة الكتاب فسنكتب عنها شيئاً فى الجزء الآتى ان شاء الله تعالى

رأى الناس فى الكتاب ورأينا فيه

قلنا فى تقريظ كتاب (تحرير المرأة) ماعدنا معناه فى تقريظ المرأة الجديدة من اننا لم نر فى مكتوب العصر شيئاً أثر فى مسلمى مصر مثل هذين الكتابين وكنا قد استبشرنا لهذا التأثر لدلالته على ان فى الامة ذماء ورمقاً من الحياة يهيج احساسها للنفور من الضارّ فى اعتقادهم وان لم يرتق الى العناية بالنافع فى الاخذ به ولكن هذا الاستبشار غير صاف من الكدورة ولا محل هنا لبيان السبب فى ذلك اذ لا يفى به الا مقالة او مقالات فى شعور الامة ووجدانها وتأثيره فى اعمالها.

قلنا فى الجزء الماضى ان من الناس من قرظ كتاب المرأة الجديدة ومن انتقده ونذكر ههنا ان المنتقدين هم الأكثرون بحسب ما يظهر لنا من كتابتهم فى الجرائد ومحاوراتهم فى الأندية والسمار. يقول هؤلاء المنتقدون ان هذا الكتاب وسابقه ما القا الا لاقناع المسلمين بأن يعطوا نساءهم الحرية المطلقة بمعاشرة من يردن من الرجال وان يكنّ كنساء الافرنج مكشوفات الوجوه والرؤس يختلفن الى الملاهى والمراقص ويذهبن فى التهتك كل مذهب. هذا ما يلهج به الجماهير يتلقفه بعضهم من بعض واكثرهم لم يقرأ الكتاب. ومنهم من يزيد على ذلك مسئلة المدنية الاسلامية والمدنية الغربية وقد ذكرنا طعنهم فيها آنفاً

ان كان الكتابان ألفا لهاتين الغايتين او اشتملا عليها فنحن وجميع المسلمين بل وجميع العقلاء نقول إنهما باطلان جديران بالمقت والرفض لان ذلك يجر الى فتنة فى الارض وفساد كبير ويكون به خيار نسائنا فى التهتك والتبذل أبعد غوراً من شر نساء الافرنج لان لهؤلاء من التربية والعلم الذى لم يصلن

اليه الا بعد عدة قرون ما ليس لنا شيء منه ونحن لما نبتدء بالتربية ابتداء .
ولكن هل الكتابان كما يقولون ؟ الجواب ما قلناه فى تقريظ كتاب (تحرير المرأة) فى العام الماضى من ان المؤلف غالى فى بيان مضار التشديد والمبالغة فى الحجاب وبالغ جداً فى جعل نجاح المسلمين متوقفاً على ازالة الحجاب المعهود فى الاذهان والموجود أثره فى الاعيان ... بحيث ان هذه المغالاة والمبالغة المصوغة فى قالب الاسلوب الكتابى المؤثر تذهب بوجدان القارئ الى وجوب تمزيق هذا الحجاب لأنه لم يحجب الا العلوم والفضائل عن نصف الامة . وقد رأينا من افاضل المعتدلين فى الانكار على كتاب المرأة الجديدة من قال ان هذا هو الضرر الحقيقى من قراءة الكتاب وقال : انى كنت اقرأه فأشعر بوجدانى قد تغير واعتقادى بوجوب بقاء الحجاب قد تزلزل واضطرب فأترك القراءة ليثوب الىّ وجدانى الاول ويسكن اعتقادي فيه ثم اعود اليها . فقلت له ربما تكون هذه المغالاة مقصودة للمؤلف لان الداعى الى شيء ينبغى له لاجل ارجاع من يدعوهم الى الاعتدال الذى هو الحق أن يقف على الطرف المقابل لما هم فيه فان كانوا فى جانب التفريط يقف فى جانب الافراط لينتهى التجاذب بينه وبينهم الى الوسط ولو وقف فى الوسط وجذبهم وجذبوه يخرج كل منهما عنه او يبقى فى محله ولا فائدة فى ذلك ومن هنا يقول الناس لابد من شيء من الباطل لاجل الوصول الى الحق . وقد قال الامام الغزالى ان وعد القرآن ووعيده مبنى على هذه القاعدة مثل قوله تعالى « ياعبادىَ الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً » انما يعالج به الذين غلبت عليهم خشية الله والخوف من عذابه وافرطوا

فيها حتى كادوا يقنطون من رحمته تعالى . واما الذين غلب عليهم التهاون وادى بهم الافراط فى الرجاء الى الغرور وكادوا يأمنون مكر الله وعذابه وتجرؤا على المعاصى فيجب ان يعالجوا بمثل قوله تعالى « والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » واذا ذكروا تلك الآية ذُكّروا بمثل قوله تعالى « وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » وهكذا يجب ان يكون المرشد كالطبيب يعطى كل مريض ما مسّت اليه حاجته ويناسب حاله . ثم إن من فوائد هذه المبالغة أن أثارت افكار الناس للبحث وكل الباحثين اوجلهم موافق له على سوء حالة المرأة المصرية او المسلمة ووجوب تربيتها وتعليمها وقد كان المانع الاكبر منهما عند الجماهير هو الحجاب ولكنهم يخالفونه فى توقف التربية والتعليم فى كمالهما على تخفيف الحجاب او منعه فاذا انتهت هذه المناقشات بانصراف همة الامة الى تربية وتعليم مع بقاء الحجاب تقدم الى الامام ويكون الفضل الاكبر فى ذلك لقاسم بك يعترف له به بعض المنصفين الآن ويحفظه له التاريخ الى آخر الزمان

استفتاء البابلى فى المرأة الجديدة

من اعجب ما احدثه كتاب (المرأة الجديدة) فى نفوس الناس ان محمد افندى عبده البابلى كتب الى فضيلة مفتى الديار المصرية كتاباً مفتوحاً وزعه على الناس ونشره فى الجرائد يسأل فيه : « هل رفع الحجاب عن المرأة واطلاقها فى سبيل حريتها بالطريقة التى يريدها صاحب كتاب (المرأة الجديدة) يسمح به الشرع الشريف ام لا » ثم طبع استفتاءاً الى هذا الكتاب المفتوح ووزعه فى الازقة والشوارع وارسله الى الجرائد قبل ان يرسله الى

فضيلة المفتي المخاطب به حتى ان الاستاذ المفتي لم يعلم به الا بعد ان أطلعته انا عليه ونحن نجيب هذا السائل المستلفت فنقول :

(١) ان الاستفتاء جاء على خلاف المعهود في مثله ولم يفهم احد من العقلاء معنى توزيع السؤال مطبوعاً على الناس لا سيما قبل ايصاله الى المسؤل بل انا في شك من ارساله اليه قياساً على الاستلفات الذي رآه عندي لاول مرة . ولا يقال ان الغرض الفائدة لان الفائدة انما تكون في الجواب وربما كان اكثر الذين وزع عليهم الكتاب المفتوح والاستلفات من خالي الذهن عن كتاب المرأة الجديدة . فيظهر ان للسائل غرضاً غير الافادة

(٢) لا يخفى على السائل وغيره ان الاستفتاء عن كتاب يستلزم ان يقرأ المفتي ذلك الكتاب كله وذلك تكليف الشطط لان اصحاب الاعمال الكثيرة كمفتي القطر المصري يجب ان يختصر في الاسئلة التي تلقى اليهم لان كثرة اعمالهم لا تسمح لهم بقراءة الاسئلة المطولة والجواب عنها الذي يستدعي التفصيل والتطويل غالباً واننا نعلم ان الاسئلة التي ترفع الى شيخ الاسلام في دار الخلافة لا يكتفون فيها بالاختصار حتى يذكرون الجواب ويسألون عنه فيكتب شيخ الاسلام كلمة (اولور) اذا كان الجواب بالايجاب وكلمة (اولماز) اذا كان سلباً . والسائل يعلم ان مفتي الديار المصرية هو رئيس الجمعية الخيرية الاسلامية التي هي اعظم جمعية للمسلمين في البلاد العربية كلها وهو ايضاً عضو عامل في مجلس شورى القوانين ومجلس الاوقاف الاعلى وله اعمال اخرى في نظارة الحقانية وهو شيخ رواق الحنفية الذي هو اعظم رواق في الازهر وناظر على اوقاف كبيرة وعضو في مجلس ادارة الازهر ويؤلف ويقرأ في الازهر درساً في علم البلاغة ودرساً في تفسير

القرآن الشريف ولا يخفى ما يستلزمه هذا الدرس من المطالعة والمراجعة . ويعلم انه من الدقة فى أعماله بحيث اذا رفع اليه استفتاء من المحاكم عن قتل جان يقرأ جميع اوراق القضية وان كانت تعد بالمئات . ويعلم ايضاً انه مقصود من الناس بقضاء المصالح فلا يخلو يوم من عدة اشخاص يطلبون منه قضاء مصالحهم . فهل مثل هذا يستفتى عن كتاب . ويكلف بقراءته ليبين رأيه فيه . كلا انه يجب على شيخ الجامع الازهر ان يؤلف بمعرفة المفتى ومساعدته لجنة من العلماء لانتقاد الكتب التى تنشر بين المسلمين يكون افرادها من البارعين فى جميع الفنون بحيث ينتقد كل صنف ما هو عالم به ثم ينشر ذلك فى الجرائد فان فى الكتب المنسوبة للمتقدمين ما ينشر وفيه من الافساد فى الدين والدنيا فوق ما يتصوره كل منتقد على كتاب (المرأة الجديدة)

(٣) ان الفتوى فى الكتاب لا يمكن ان يفهمها احد الا اذا اطلع على السؤال والسؤال يدخل فيه الكتاب كله فيحتاج كل من اطلع على الفتوى ان يقرأ الكتاب اولاً فاذا كان ضاراً تكون الفتوى سبباً فى اذاعة الضرر

(٤) اذا أفتى مفتى الديار المصرية فى الكتاب فلا شك ان فتواه تكون بمقتضى مذهب الحنفية الذى عينته الحكومة ليفتى به فاذا لم توافق فتواه غرض صاحب الكتاب يمكنه ان يقول كما قال فى كتابيه ان اصلاح شؤون المسلمين يتوقف على عدم التقيد بقول امام واحد بل يجب أن ينظر فى المصلحة وتطبق على قول أيّ امام ولا يخفى انه نقل عن بعض الائمة فى تحرير المرأة جواز كشف الوجه والكفين وجواز معاملة الرجال فى غير خلوة وهذا كل ما يطلبه من ابطال الحجاب

كل هذا يدلنا على ان السائل اخطأ فى السؤال وانه لا يليق جواباً